

قصيدة المدرب الأحمر

النوم لما يأتى لهذا الحى ، بل إن المساءُ
يعطيه بعض نجومه ، حتى يضئ إلى الصباحُ
فتظل ساهرة مقاهيه التى تمتد من (سوق السلاح)
وعلى جوانبها المقانق ، والمسميط ،
وكل أنواع التسالى

..
والجالسون يحركون الزهر فى عصبية ،
ويناقشون بلا انتهاء
عُقد السياسية ، والرياضة ، والنساء!

..
كانت لشلتنا الصغيرة
جلسة مألوفة فى ركن مقهى ..
نتقاسم الأفراح فيها ، والمشاعر ، والمهموم

..
وتدور أغنية لـ (سومة!)
فتثير فى الأعماق أشجانا ،
وتبعث فى الضلوع رؤى قديمة

..
ومع ارتشاف الشاي تنكشف الغيومُ
ويقول قائلنا:

- أليس المرء موجوداً لينعم بالحياة ؟!
والذكريات تباعدت ،

فلم التباكى كلما مرت علينا الذكريات ؟!
قد يبسم الغدُ للحزين ،
وتستجيب على مدى الأيام .. أغلى الأمنيات

..
 ويشوقنا نَذَرُ الحارات فى ليلِ الشتاءِ،
 من (المؤيّد) لـ (الرفاعى)..
 متحدثين عن المعارك، والسيوفِ،
 وعن مقاومة القلاعِ..
 وبأى بادرة تجرّأ ذلك المملوكُ،
 فاستعدى الحصان الحرّ،
 كى ينجو بفارسه الشجاعِ..

* * *

ونغوصُ فى الأمس البعيد..
 وقد تزيّنت المدينة لاحتفالات الخلافةِ
 وتواصلت فى المولد النبوى رايات الموكبِ،
 والمشاعلُ، والليالى الفاطمية
 هذى شواهدها تُحدّق من عيون المشريه
 لكننا نهضوا إلى حطينِ،
 يقدّمها صلاح الدين منتصراً،
 ويعفو عن ملوك الغربِ،
 يظهر بالخصال القاهرة!

* * *

وهنا .. تجمّع حول بيبرس المفضّى..
 ألف فارس
 تعاهدوا أن يوقفوا زحف المتتارِ..

إلى الأبد

..

ماذا جرى؟
 ويضيف قائلنا:
 - ألسنا من سلاّتهم،
 وهذا الشبل من ذاك الأسد؟!

* * *

ونكون قد صرنا .. إلى (باب الوزير).
 حيث المدافن، والشواهد، والقبور
 يغدو حديث الجن شاغلنا،
 فنفرغ ما لدينا من حكايات،
 ويقرب خطونا من خطو بعض
 ويلفنا صمت المكان .. فننتفض!

* * *

المصبح فى تلك الأزقة لا يفاجئها..

فتصحو.. فى ارتخاء
تتفتَحُ المشرفاتُ عن بعض العجائزِ ،
والنساءِ الكاسياتِ!
يحكينَ كيف مضى المساءُ؟
ومتى احتوى أزواجُهن البيتُ ؟
أى رطوبة هبطت قُبَيْلِ الفجر ؟
ما هذا الشتاء ؟!

* * *

ومن المدروب الضيقة
تخطو المصبايا الكاعبات ،
لتشتريين الفول ، والخبزَ الطرىّ،
وتجتمعن على الحليب
(والأسطواناتُ) من المحلات الصغيرة ،
يرقبون وهم قعود
لِف (المرآية)
واحمرارِ المكعَّبِ،
والموعد المغلف بالصدود!

* * *

وتلوح سائحة رشيقة
فصيح بعض المعجبين:
- الله يعطى من يشاء!!
ويرد بعض الجالسين:
- الحسن فى المكفّر فتنه
يهوى بهم نحو المشقاء!

* * *

ويثور مندفعاً شجارُ
أسبابه معروفةٌ لجميع من يتجمّعون
فيسارعون ليوقفوا طيش الأَكفِ
ويطفئوا غضب العيون!
" صلوا على طه النبى!"
وبسرعة يتفرقون
" فالיום .. مطلعُه بهى!"
وإذا تمر جنازة ،
يقف الجميع موجّدين
ومتتمين .. بأن هذا العمر - مهما طال - محدود ،
وأن الراحلين
لم يستفيدوا من (مكاسبها)
سوى ما قدموه .. بطيب خاطر
والله أعلم بالسرائر!

* □ □ *

يمضى الزمانُ ،
وذلك الحىَّ المعمرَّ قائمٌ لا ينحني ..
نفسُ الوجوه هي الوجوه ،
ونفسُ هذه الأمكنة ..
ولربما حاكى مساجده التي قامت هنا ..
من ألف عام!
أو ربما محاكى مقابرَه التي تمتصُّ من نهر الحياة ..
على الدوام!
أو ربما كانت له أسرارُه الأخرى ..
وويلٌ للذى يسعى .. لينكشف اللثام!